بين العلم والأدب

هل يميت العلم الشعور ؟

بقلم محمد روحي فيصل

« العلم يجفف القلب ويميت الشعور »

رأى أملاه على منذ سنوات احد اساتذتي الأدباء ممن لا بأس بلبه وعقله ، ولا يتهم في فطنته وبصيرته ، ثم سمعته من بعض الشباب الناهض المتأدب ، وقرأته لغير واحد من كبار الكتاب في مصر والشام والعراق . فاذا الرأى شائع معروف ، ثابت الأصول منبسط الفروع ، يرد ابداً على طرف اللسان وشق القلم ، واذا الناس يخشون العلم ويخافون على قلوبهم ونفوسهم من بأسه وضرره ، واذا هوة سحيقة المنأى بعيدة المستقر تفصل العلم عن الأدب وتباعد بين اسبابهما وادواتهما ، اما ان بعض مصطلحات العلم جاف شديد الجفاف فهذا مالا يختلف فيه اثنان ، واما ان قوام العلم للنطق والعقل فهذا حق الى حد ما ، واما ان العلم ذاته يميت الشعور فهذا ما نحب أن نعالجه الآن في جرأة واخلاص ، ونناقشه في روية وهدوء . ونحن نغتبط كل الغبطة حين تعني الصحف والمجلات بالأدب ، تعقد له الفصول الطوال ، وتدعو الى تفهمه ودراسته ، وتبذل لهذا كله قوتها وجهودها ونرجو ان تكون النهضة الأدبية مقدسة مباركة تحفها أشعة من نور وهالة من بهاء ، فليس أدل على حيوية الأمة من الفن والأدب يعرض عليك ، في وضوح ودقة ، ميولها واهواءها وافكارها وسائر مايتردد بين قلبها وعقلها من الخواطر والانفعالات . ولكن مفهومه على النحو الصحيح ما يزال مبلبلاً مهلهلاً . ما هو أفقه وغايته ؟ ماهو مقياسه وحدوده ؟ ماصلته بالعلم ؟ ماقيمته في عالم المعرفة ؟ هذه اسئلة يختلف كتابنا في الأجابة عليها تمام الأختلاف ، ويذهبون فيها شتى المذاهب

أما نزال بسطاء سذجاً تخدعنا البهرجة الكاذبة ، والطلاوة العابثة ، وتفتننا الألاعيب اللفظية والأناقة الكلامية ؟ ألسنا على ثقافتنا وجلال نهضتنا نجهل مقاييس الأدب الصحيحة ، وحدود الجودة والرداءة ، ومواطن الجمال والدمامة ؟ ألسنا نستحسن ماتنثى منه النفس ؟ وماهو حقيق بالنبذ والأهمال ، ثم نستقبح ماقد يكون في الذروة من البلاغة الجميلة الرائعة ؟

ذلك ناشيء عن فساد في الذوق ، وجدب في التربة ، وكره للعلم وابتعاد عن دراسته وتحصيله ، وعندي ان كل انتاج في الأدب لم يبدأ بأصلاح هذا الرأى فانما هو محاولة فاشلة فاشلة ، ومضيعة للجهود المبذولة في غير طائل ولا نفع

في الدنيا جمال ، وفي الدنيا حقيقة ، وفي الدنيا خير . أقانيم ثلاثة تتحد في السبب ، وتتصل في الجوهر والعرض ، او هي مثل عليا متداخلة متشابكة ، ففي الجمال حقيقة ، وفي الحقيقة جمال وهكذا . . . فالأدب انما ينبغي أن يستند الى شيء من العلوم التجريبية والنفسية والأجتماعية ، ويعتمد على ما أثبته العلم في مختلف الميادين والموضوعات . والأديب والعالم انما يجب ان يتصالحا ويتصاحبا فكلاهما ينظر الى الطبيعة والحياة من ناحية ، هذا يكشف عن حقيقتها وذاك عن جمالها ، وهما بعد يتعاونان على بحثها واجتلائها

فالعلماء مجمعون فيما بينهم على ان غاية العلم انما ينبغي أن تكون البحث عن الحقيقة الخالدة يتحرونها في كل مظهر من مظاهر الوجود ، لا لنتائجها العملية يستخدمونها في حياتهم ومعاشهم ، بل حباً في الأطلاع واشباعاً للنفس . هم يطلبون العلم لذات العلم لا لآرب أخر ، ويلحون في أن يكون خلواً من الأغراض والمنافع ، بريئاً من كل نزعة تطبيقية . يريدون ان يكون العلم نظرياً محضاً يستهدف الحقيقة في كنهها وصفاتها وذلائلها ونسبها . يقول هنري بوانكاريه

هل هو رمزٌ للخلو د والوجود الأزلي
أم هو رمزٌ للفنا يبـــدو وللتحول ؟
وقد أراه قدوةً لنا وخير مَثَل
لو ان فينا بعض ما فيه من الخُلق العلي
من شدة وعزمة وقوةٍ وعمـــل
إذن لكنا دولة بين كرام الدول

والآن أيها الصديق تحية وسلاماً . . . أرجو أن أكون قد نكلت بك كما أردت واشتهيت ؛ وان عدتم عدنا . والى اللقاء ؟

أخوك المخلص

جوان لي بان في ٦ حزيران — محمد عرضه

«ان معرفة الحقيقة يجب أن تكون غاية نهضتنا»[١] ويقول شالى « كلما سما العلم وتجرد عن المقاصد والأغراض فى العصر الحاضر كان للأجيال الآتية اكثر خيراً واعظم نفعاً »[٢]

وليست المادة وحدها بالتى يتناولها العلم فيدرسها وانما هو يبحث ايضاً فى حياة النفس واحداثها ، فهى فى نظره موضوع للتفكير كالمادة سواء بسواء . . فالعلوم على اختلافها انما هى دروب ما تتشعب وتنحرف الا لتلتقى فى نقطة واحدة هى « الحقيقة » . أفتظن ان معرفة هذه الحقيقة التى يبذل العالم لها جهوداً جبارة هى سبيل لتجفيف قلبه ، واطفاء معنى الشعر فيه !! لا ! لعمرى ان العالم الذى يصل الى حقيقة من الحقائق انما تمتلىء نفسه فى الحال بهذا السرور وهذه النشوة العلوية ، فليس أدعى للذة ولا اكثر مجلبة للسعادة من عرفان الحقيقة ! ! أذكر عالماً من العلماء — وأظنه الكيميائى داوى Davy قد أخذ نفسه بدراسة « البوتاسيوم » فى مخبره ، فلما عرف حقيقة الجسم قام حول الطاولة يرقص بهجاً طروباً !! وكان ارخميدس يوماً فى الحمام يجرى عمليته فى سبيكة المعدن ليعرف مقدار الذهب فيها والفضة ، حتى اذا لاحت له الحقيقة خرج فى شوارع المدينة عارياً حافياً يصيح : وجدتها ، وجدتها eureka . . ففى خروجه على هذه الحال من العرى والحفاء ، وفى صراخه القوى البهيج ، صورة جامعة تامة الخطوط والألوان للذهول الشديد الناشىء عن اللذة الفجائية الطافرة التى بعثت فى قلبه المشاعر والعواطف ، وأسالت منه أقصى حدود الفرح والبشر ، وطبعت على شفتيه المنفرجتين بسمة حلوة مشرقة ! !

ولعل الحقيقة النفسية اكثر الحقائق مدعاة للسرور ، فهى التى تهمنا قبل كل شىء لأنها تتصل بنا وتؤلف الجانب الأكبر من حياتنا ، فالكشف عنها انما هو اجتلاء افق فسيح عجيب ، ملؤه الجمال والجلال

إن العلوم التجريبية تسمو دوماً من الحوادث والواقع الى القانون . هى تعلو وتعلو فى جو التجريد حتى تحصر مظاهر الكون فى هذا الرمز الصغير المدعو « قانون » . فالقانون علاقة بسيطة تربك هذا النظام الدقيق الذى تتقيد به الطبيعة ، وتخضع له من غير شذوذ ولا مصادفة . فنحن حين نقرر سقوط الأجسام كلها نحو مركز الأرض نوضح هذا التجاذب القوى العام الذى يحصل بين الكتلات ، نوضح ناحية من نواحى الوجود لها قيمتها ولها أثرها . وهذا التجاذب هو فى الحق حلقة من سلسلة النظام الطبيعى . فالقانون هو ، على حد تعبير هنرى بوانكاريه ، أحدث وسيلة لجأ اليها العقل البشرى للتعبير عن هذا النظام الطبيعى . أفلا يروقك أن تلحظ أن فى هذا العالم الذى تعيش بين جوانبه ، والذى أنت عنصر كريم من عناصره العديدة — اتساقاً وانسجاماً بديعين ؟ !

لقد كان الناس فى العصور الخوالى يتطلبون من آلهتهم معجزات خوارق يثبتون بها وجودهم وقدرتهم ، وانما الأعجوبة الرائعة حقاً ألا يكون هناك أية معجزة خارقه ، وأن يكون كل شىء فى الطبيعة يسير على خط منتظم فى حركة منتظمة ، لا اعوجاج فى الخط ولا تزايد فى الحركة ! ! فنظام الطبيعة الذى يكشف عن العلم شيئاً فشيئاً هو مصدر كل جمال وكل شعر ، يبعث فى القلب أسمى الشعور وأدق النزوات . . .

لعل الذى يقول بتجفيف العلم للقلب انما ينظر الى هذه المجازر البشرية ، والى تلك الشرور والآثام التى كان العلم فيها عاملاً قوياً لهتك الفضيلة وسفك الدماء . . هذا صحيح ، ولكن العلم فى ذاته لا يبغى الا هدفاً شريفاً منزهاً عن كل النزعات البشعة ، فهو يصلح للخير ويصلح للشر ، ويستخدم لرفع مستوى الانسانية ويستخدم لتدنيسها ، فليس الذنب ذنبه وانما هو ذنب من حمله ! فأنت تستطيع أن تنقم عليهم ، وتستطيع أن تكيل لهم أشنع النعوت والصفات ، ولكنك مضطر الى أن تقف فى محراب العلم خاشعاً متصدعاً ، تتلو آى الحمد والأجلال ، وترتل أناشيد الحب والأعجاب ! !

أو لعل الذى يقول بتجفيف العلم للقلب انما يزن الحقائق التى اجتلاها الانسان خلال هذه العصور الطويلة ، فوجدها ضئيلة هزيلة لا تعدل ما بذل فى سبيلها من جهود . . وهذا صحيح أيضاً ، فالحقيقة لا تطفو على ظاهر الأشياء ولا تستبين بارزة عارية وانما هى خيال ما يكاد يتراءى للعين والبصيرة حتى يختفى ، ولقد يضطر العالم الى اللحاق به فيعدو ويعدو ، ثم يعود فى الأعم من الأحوال خاسراً خائباً . فتحرى الحقيقة عمل شاق مضن ، ولذا اشترط على العالم الصبر والأناة والجلد . على أن ما علمناه يزيد فى ثراء خزانة

(١) راجع المقدمة من كتاب بوانكاره «قيمة العلم»
(٢) راجع صفحة ٣٢ من كتاب شالى «فلسفة العلم والأخلاق»

المعارف ، ويهيب بنا الى القول أن الانسان الحاضر أرق من الانسان الأول ، وأكثر منه كمالاً . أقول كمالاً ولا أقول سعادة ، لأن السعادة غير منوطة بالعلم أو ناتجة عنه ، ولعلها بالجهل أجدر وأليق ، ولعل العلم يبعث القلق والاضطراب ، ويثير أحلام النفس لغافية ووساوسها النائمة

***

اكتشاف الحقيقة لا يتم الا بالخيال والعاطفة ، وهما أهم مقومات الشعر والأدب ، يتخذهما العلم في البداءة جناحاً يطير به ، ووسيلة يلجأ اليها ، فهما أداتان لا غنى له عنهما ، أفيستطيع العالم تبيان مجاهل الكون الا بالتخيل والتصور ، يرسم حدودها وأشكالها على صحيفة مخيلته قبل أن يعرفها بالواقع والمحسوس ؟ أفلم تكن العاطفة والرغبة حافزاً للمعرفة وداعياً الى الاحاطة بها ؟ . . ومع أن العلماء حددوا مدى الخيال ، وألزموا الحس بالبرهان فلقد راضوهما كثيراً واستهضوهما كثيراً .

فالمعهود أن ملكة التخيل والفرض قوية نامية عند العلماء والمفكرين ، والمعهود أن كبار الأدباء كانوا علماء أو مثقفين ثقافة علمية متينة واسعة . فهذا جيتي الأديب العبقري كان عالماً من علماء القرن الثامن عشر ، له في النبات نظرية « التحور » وله في طبقات الأرض والأحجار الكريمة آراء محترمة ، يعتقد ببساطة النور ويقول أن جمجمة الرأس انما هي حلقة من حلقات العمود الفقري تطورت ونمت فصارت الى ماهي عليه الآن من التجسم والضخامة . أما بساطة النور فلا يؤمن بها أحد من العلماء اليوم ، وأما نظرية الجمجمة فلا تتلاءم مع علم الرشيم الحديث فعدل عنها ، وان شئت فقل انها تحورت الى نظرية أخرى . كان جيتي أديباً كبيراً وكان عالماً حقاً ، لم يمنعه علمه من الانتاج في الفن والأدب ، ولم يمنعه علمه من الاسترسال وراء الخيال الصادق الصحيح ، وهل الخيال الصادق الصحيح الا ظل الحقيقة وصورة الواقع ؟ ؟

انما يكشف العلم عن مصادر خصبة للجمال يجدر بالأديب أن يتأملها ويستوحيها ، يهيج الخيال وينشط العاطفة ثم يسبغ عليهما من روعة الحقيقة ما يلهبهما ويؤججهما ؟

حمص — محمد رومي فيصل

في الأفق الدولي

بقلم أوربية جديدة

كان اعتراف دول الائتلاف الصغير بروسيا السوفيتية واجتماع السينور موسوليني والهر هتلر أهم الأحداث الدولية التي وقعت في الأسبوعين الأخيرين . وتوجد بين الحادثين صلة وثيقة ، وكلاهما يرجع الى نفس البواعث والظروف التي تدفع أوربا اليوم الى منحدر شديد الحلك . وقد بينا في مقال سابق في الرسالة أن التاريخ يعيد نفسه ، وأن أوربا القديمة تعود فتبدو للعالم كما كانت قبل الحرب مسرحاً للتنافس الحربي وعقد المحالفات السرية ، وتنظيم الجياد الخضيمة . وقد بدأت فرنسا منذ رأت تصميم ألمانيا على تسليح نفسها بتنظيم جبهة سياسية عسكرية تستطيع أن تعتمد عليها في مقاومة ألمانيا اذا ما نشبت بينهما الحرب ؛ ولما كانت العلائق قد فترت بين ألمانيا وروسيا على أثر قيام الطغيان الهتلري في ألمانيا وسحقه للحركة الديمقراطية ومجاهرته بخصومة روسيا السوفيتية ، فقد رأت فرنسا أن تعود فتتقرب من روسيا وأن تحاول إحياء التحالف الذي كان معقوداً بينهما قبل الحرب ضد ألمانيا . فبعثت مسيو هريو رئيس الوزارة الأسبق الى روسيا لتمهد السبيل لهذا التحالف ، ورأت روسيا من جانبها أنها في حاجة لتوطيد مركزها بين الدول الغربية ، وتأمين سلامة حدودها الأوربية لكي تستطيع التفرغ نوعاً لمقاومة الخطر الياباني في الشرق الأقصى ، فرحبت بهذه الخطوة ؛ واستمرت فرنسا في سعيها لتنظيم هذه الجبهة الشرقية ضد ألمانيا ، حتى استطاعت أن تحمل دولتين من دول الائتلاف الصغير هما رومانيا وتشيكوسلوفاكيا على الاعتراف بروسيا السوفيتية تمهيداً لعقد التحالف بينهما وبين روسيا . وقد جاء اعتراف الدولتين بروسيا على أثر الزيارة التي قام بها مسيو بارتو وزير الخارجية الفرنسية لكل منهما . ونفوذ فرنسا في رومانيا وتشيكوسلوفاكيا معروف ، وهو الذي يوجه سياستهما الخارجية منذ نهاية الحرب الكبرى . ونستطيع أن نقارن بين رحلة مسيو بارتو التي أسفرت عن التمهيد لهذا التحالف برحلة مسيو بوانكاريه